

الأرض و الإنسان عند الجغرافيين المسلمين

دكتور / عبدالعزيز كامل

مقدمة

(١)

فى ربيع ١٩٧٧ م (١٣٩٧ هـ) شهدت قرطبة مؤتمرا للحوار الإسلامى المسيحى ، كان المشاركون فيه من جنسيات متعددة ، ومعظمهم من أساتذة الجامعات فى العالمين الإسلامى والمسيحى .

وفى محاضرة لأحد زملائنا المسلمين ، وكان يومها مجهدا أخطأ فى شكل حرف من آية بقروها .. فإذا بالمسلمين الحاضرين وفى صوت واحد يفتحون عليه بالنطق الصحيح ، تم هذا بعفوية ودون إتفاق ولحظت هزة سريعة كأنها مس كهربائى هزت زملاءنا المسيحيين . ومرت دقائق وطوى الصديق صفحات ، وغلبه الجهد ، فأخطأ مرة ثانية . وفى صوت واحد نطق المسلمون الصواب ، فصصح المتحدث النطق ، وتكررت الهزة من الزملاء المسيحيين . وجمعنا حفل عشاء ، وكان جلوسى إلى جوار صديقين من كبار رجال الدين المسيحى فى أسبانيا . وسألانى :

ما الذى حدث ؟ المحاضر نطق كلمة . فإذا بالحاضرين يقولون : كلمة واحدة فى صوت واحد ، فيقولها دون أن يراجعهم . حدث هذا مرتين ؟ هذا ليس معروفاً عندنا .. نرجو أن تفسره لنا .

قلت : إنه أخطأ فى حرف من كلمة القرآن الكريم ؟

قالوا : ألا تصبرون عليه حتى ينتهى من حديثه ؟

قلت : لو كان فى الصلاة ، وفى المسجد ، ويؤم الناس ، لوجب علينا تصحيحه فوراً ، لنلا ينتقل الخطأ منه إلى أحد السامعين .

قالوا : تصحيحون المتحدث فوراً مهما كانت مكانته الدينية ؟ ألا ترون فى هذا إحراجاً

لشخصية مرموقة أمام الناس ؟

قلت : إن النص القرآنى أكبر منه ومنا . لو توقف الإمام فى القراءة لكان على من وراءه

من المصلين أن يعينوه ويفتحوا عليه ليتابع القراءة ، ولو أخطأ لوجب عليهم أن يقولوا الصواب فوراً ..

قالوا : ولكن السامعين لا يحملون نسخا من القرآن ، فكيف يثقون في قدرتهم على الصواب وفي أن المتحدث أخطأ ؟ مع أننا في الكنيسة ، نقدم النص إلى رجل الدين ليقرأ منه ، وهو يؤدي الصلاة دون اعتماد على ذاكرته ، ولا يراجع أحد . وأنتم بدون نص في أيديكم ، والمتحدث في يده النص ، وتردونه جميعا في صوت واحد ؟ !

قلت : هذه هي طبيعة الصلة بيننا وبين القرآن .

وعدت إلى نفسى استرجع هذا الحوار الذى أبان أمام العقلية الغربية . عمق صلتنا بالقرآن عمقا غامضا ممارسة طبيعية ، يرونها غريبة وغير منطقية .

بل أكاد أقول : غير لائقة - من وجهة نظرهم - ممارسة تبدو بها مكانة النص القرآنى في مؤتمر علمى عالمى .. وتلقى - بالتالى - ضوئاً على مدى ارتباط الانتاج العلمى بكتابنا الأكبر القرآن الكريم .

ولازلت أذكر مدى تأثير الزملاء المسيحيين بثقة زملائهم المسلمين في حفظ النص مهما يكن موقعه في أى سورة من سور القرآن ، واستعداد المسلم الفورى لتصويب أى خطأ فيه في رجوع القول .

(٢)

السطور الأولى

من أجل ذلك إذا رجعت إلى كتاب من إنتاجنا الإسلامى الأصيل ، وجدته يبدأ - كما يبدأ القرآن - بسم الله الرحمن الرحيم وبحمد الله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ..

هذا المدخل ليس سطورا تقليدية في مطلع الكتاب ، وإنما يكاد يكون عهدا وموقفا من الكاتب أن يتحرى المنهج الذى يرضى عنه الله وجاء به المصطفى (ص) . ويحدد مستوى الصدق والموضوعية التى ينبغى أن يتوخاها الكاتب ..

وعند هذا المدخل : وهذه السطور الأولى أود أن أقف قليلا ..

ذلك بأن ترجع إلى قسم الثقافة الإسلامية في أى مكتبة ، واختر من فروعها ما تشاء .. يستوى في هذا ما اصطلحنا على تسميته بالعلوم النقلية أو العقلية : سترها جميعا وقد استوت في هذا المدخل الربانى : ذكر اسم الله وحده ، والصلاة والسلام على خاتم رسله .

(٣)

حضارة ربانية

ذلك لأن نظرة المسلم إلى المعرفة في شمولها ، نظرة فيها احترام عميق : فالعلم صفة من صفات الله . وهو أول ما أمر الله به رسوله . فيأ أوحى إليه ، « اقرأ باسم ربك الذي خلق » (العلق : ١) . وفي قوله تعالى « اقرأ باسم ربك » تأكيد على هذه الصلة بين العلم ومصدره الأعلى ، وأن أوامر الله من تحرى الحق والعدل فيما نقول ونكتب قائمة بالنسبة لكل عالم أو طالب علم ..

ويزيد الإسلام من كرامة العلم فيكون القلم أول أداة يذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى : (اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم) .. (العلق : ٣ - ٤) وأول ما يقسم به ربنا في ثاني سور القرآن نزولاً « ن والقلم وما يسطرون » (القلم : ١ - ٢) . وتأمل قوله تعالى « وما يسطرون » ما تسطر أنت وما أسطر أنا .. وما يسطر كل حامل لأمانة القلم .

هذا هو المستوى الأعلى لمكانة العلم في الإسلام .. ومن هذا المعين الأول استقى علماءنا ومنهم الجغرافيون ، مصدقين أن الوحي هو المصدر الأعلى للمعرفة بكل ما أمر به من الفقه والموضوعية .

(٤)

في المنهج العلمى

ومن هذا التعميم تنتقل إلى شئ من التخصيص .. وسأركز الدراسة على كتاب أساسى مستعينا بكتب أخرى . هذا الكتاب هو (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) لأبى الريحان البيرونى . والمعروف بكتاب « الهند » مع الاستعانة بكتب أخرى من التراث الجغرافى الإسلامى .

والتساؤل الأول : لماذا هذا الكتاب بالذات ؟

وأقول : إن أساس اختيار هذا الكتاب يرجع إلى ظروف تأليفه . كان البيرونى مع الجيش الاسلامى المغولى المنتصر الذى ثبت أقدام الإسلام . فى شبه القارة الهندية . وكانت

الحضارة الهندية في النصف الأول من القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فى تراجع أمام المد الإسلامى الزاحف .

موقف قد يدعو الكاتب إلى الاستعلاء بما عنده وامتهان ما عند غيره ، ومحاولة تصويره من زوايا التحامل عليه ، تبريرا لحربه وانتقاص أطرافه والسيطرة عليه إن استطاع . ولموقف الاستعلاء هذا شواهد كثيرة فى كتب الغرب عن أفريقيا وآسيا ، والحضارات الأمريكية السابقة للكشوف الجغرافية منذ أواخر القرن الخامس عشر . وما كتب رجال الغرب عن تأخر هذه الشعوب وهمجيتها وأساليبها فى الحياة . وما ذكروه عن « مسئولية الرجل الأبيض » فى نقل الحضارة الحديثة إلى هذه الأقطار واعتبار ذلك مهمة إنسانية نبيلة .

وكيف تعاونت الدولة مع الكنيسة مع التجار فى هذا السبيل ، وما ارتبط بهذا من استنزاف رهيب للأرض وخيراتها وللإنسان ، فى حركة هجرة عبر المحيط الأطلسى لعانها أوسع حركات الهجرة المنظمة اللا إنسانية ، فى تاريخ الإنسانية ، وما زالت آثار التفرقة العنصرية ماثلة فى الحياة الغربية ، رغم موائيق حقوق الإنسان والإعلانات العالمية عن مقاومة التمييز العنصرى ، والمساواة بين الناس فى أصل الخلقة وفرص الحياة ، نعم لقد قام الملونون بجهود جبارة من أجل حقهم فى الحياة ، ولا زالت الصراعات دائرة بينهم وبين البيض الذين بيدهم مقاليد الأمور . ولكن وجود هذه الجهود هو وحده إدانة للحضارة الغربية ، وتصحيح لبعض كبائرها .

فإذا ما جاء البيرونى فى كتاب الهند ليكتب فى موضوعية برينة من استعلاء المنتصر ومن الاستهانة بالمهزوم ، فقد توخى نظرة موضوعية فى دراسته ، هى المدخل الأول لأى منهجية علمية منصفة .

(٥)

بين الخبر والعيان

ويفتح البيرونى كتابه بهذه العبارة المنهجية « إنما صدق قول القائل » « ليس الخبر كالعيان » لأن العيان هو إدراك عين الناظر عين المنظور إليه فى زمان وجوده ، وفى مكان حصوله . ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر لقصورهما على

الوجود الذى لا يتعدى آفات الزمان ، وتناول الخبر إياها وما قبلها من ماضى الأزمنة وما بعدها من مستقبلها ، حتى يعم الخبر لذلك الموجود والمعدوم معا . (ص ١) .

فالمعينة عند البيرونى لا تعدو أن تكون « لقطه » لقطاع زمانى ومكانى محددين . فيها الدقة ولكن ينقصها الشمول والامتداد الزمانى والمكانى . هذا الامتداد الذى نستطيع استكمال بالخبر لولا آفات تعروه .

وفى مجتمعاتنا المعاصرة درجت الدول على أن تحجز بعض وثائقها عن التداول سنين ثم تفتحها للنشر العلمى بعدها .. فالعيان الآنسى وحده عمليا وعلميا لا يغنى ، لأنه عيان قاصر ، لا يختلف عن ضوء مصباح لا يكشف أبعد من البصرة وأنت فى بعض العلاج تحتاج إلى أشعة عميقة تكشف ما وراء ذلك . وهذه الوثائق المغلفة أشعة عميقة لا بد منها لاستكمال الصورة .

فالعيان درجات . والخبر درجات . وأعلى درجات الموضوعية ما توفر له أكبر قدر من درجات العيان والخبر . عن طريق الاتصال المباشر والتفاعل القوى مع مقومات الموضوع محل الدراسة .

(٦)

مثال عملى

وأود أن أوضح هذا بمثال عملى :

ففى عام ١٩٥٣ قضيت شهورا فى السودان الشرقى أجمع المادة العلمية عن دلتا خور القاش . وهو خور فصلى الجريان ينبع من جبال إرتريا وينتهى بدلتا داخلية فى أرض السودان إلى الشمال من مدينة كسلا . وأرض دلتا القاش هى أخصب أراضي السودان . بل إن د . توتهل خبير التربة والمشراف على كتاب الزراعة فى السودان (ط . أكسفورد : ١٩٤٨) يضعها فى الذروة من الخصوبة على المستوى العالمى . وظلت الإدارة البريطانية فى السودان سنين تعتمد على دلتا القاش فى الحصول على بذور القطن الطويل الثيلة التى سبق أن جلبتها من مصر . وكان المسنولون عن الزراعة فى أرض الجزيرة بالسودان يختارون كل عام حقولا من القاش يخصصونها للإكثار . ويزرعون منها أرض الجزيرة . ولا يزال قطن الجزيرة العمود

الفقرى للاقتصاد السودانى . وقد استطاعت الإدارة السودانية بعد هذا أن تقوم بالإكثار محليا فى أرض الجزيرة دون اعتماد على القاش .

القصة التى بين أيدينا ترجع إلى فترة الاعتماد على القاش . والقطن هناك يروى مرة واحدة مع فيض الخور فى فصل الخريف على نظام الحياض الذى كان معروفا فى صعيد مصر وأجزاء من شمال السودان على ضفاف النيل . ومن المفروض أن يظل الماء فى الحوض مدة لا تقل عن خمسة وأربعين يوما تمتص فيها الأرض حاجتها من الماء ولا تحتاج بعد هذا إلى أى رى آخر ..

ولكن يحدث أحيانا أن تسقط أمطار محلية شديدة ورياح تدفع الماء إلى جسور الحياض فتكسرها ، ويتدفق الماء إلى أرض لم تكن معدة لزراعة القطن ، وتصبح الأرض التى سبق إعدادها غير صالحة لزراعته .

- فما الذى يحدث فى هذه الظروف ؟

كان الإشراف الزراعى فى 'السودان وقتئذ فى يد الإدارة البريطانية ومنهم مدير المشروع ومفتشو المحطات وكبير المهندسين . ويصل خبر الكسر إلى المفتش المسئول فيطلب من الأهالى أن يعينوه على إصلاح الجسر وحفظ الماء ، فيقولون :
- لو أراد الله أن نزرع هذا المكان قطناً لما كسر الجسر . هذه إرادة الله ولا نريد أن نتدخل فيها .

ويحاول المفتش الإنجليزى أن يستنجد بعمال من محطة أخرى ، فلا يستطيع إما لانقطاع الطرق نتيجة للمطر الشديد ، أو لرفض العمال الآخرين التدخل فى إرادة الله .. ولا يجد المفتش الإنجليزى فى هذه الحالة إلا أن يرجع عن زراعة القطن فى هذا الحوض ، وأن يتركه بمائه القليل لزراعة الذرة ، وهو يحتاج إلى ماء أقل مما يحتاج إليه القطن .

وأرجع إلى التقارير السنوية لمدير المشروع وكبير المهندسين فأجد لوما شديدا لسكان القاش الذين لا يتعاونون مع الإدارة ، ونقدا لعقليتهم القدرية المتخلفة ، ولل فكر السلبي الذى يعيشون به . وإذا كان المدير لم يقلها صراحة ، فإنه يكاد يذم الإسلام الذى يعتنقون ، وإليه يستندون فى هذا التصرف .

وأحاور المدير فى هذا فيقول لى : هذه عقليتهم . وأحاور إخوانى السودانين فيقولون لى : هذه إرادة الله ..

ومرت شهور وتوثقت بينى وبين الإخوة السودانيين صلات المودة . وقرب موعد عودتى إلى مصر . وفى أمسية هادئة جلست مع مسئول سودانى كبير فى المشروع . فقال لى :

- اعلم أن أمرا لازال عندك غير واضح . وستعتمد فى كتابة أبحاثك على التقارير وما رآته عينك . وستقول عنا أننا قديرون سلبيون كما يقول الإنجليز .. ولكن وقت خروجهم قد اقترب . وسأقول لك حقيقة الأمر ، ولاداعى لأن تكتبه الآن فى رسالتك .. حتى يخرجوا .. أعطنى كلمتك وسأقول لك الحقيقة فوعده . فقال :

- نحن الذين نكسر السدود فى الليالى الشديدة المطر .

قلت : من « نحن » هذه ؟

قال : الزراع السودانيون بموافقتنا ، دون علم الإدارة الإنجليزية . هذه الأرض كانت تزرع الذرة وهى قوام حياتنا . وجاء الإنجليز فأرادوها قطناً وأصبحنا - أحيانا - نسترى الذرة ونحن نعيش فى أخصب أراضى السودان نزرع القطن ليسعد به الغزال والنساج البريطانى ، ولا مانع عندهم من أن يجوع أولادنا . فإذا جاءت ليلة ممطرة كسرنا جسر حوض من الحياض ، وإذا طلب المفتش إصلاحه قلنا : هذه إرادة الله . فيضطر إلى تحويله إلى زراعة الذرة فنكفل بهذا الحصول على غذائنا السنوى . نفعل هذا بتعاون وهدوء ودون إفراط ولا تفريط هذه هى القصة .

فالإنجليز فى السودان عاشوا نحو نصف قرن منذ المعاهدة الثنائية ١٨٩٩ هـ إلى إعلان الاستقلال فى ١٩٥٦ ، وما سبقه من فترة انتقال قدرها ثلاث سنوات . واستطاعوا أن ينفذوا إلى جانب من الحقائق ، ولكن جانباً آخر كان خافياً عنهم . أخفاه أهل الأرض عنهم عمداً . والاعتماد على الوثائق الرسمية هنا وحده لا يكفى . ولا على مجرد الاتصال بالسكان . وإنما يحتاج هذا الاتصال إلى عمق يستطيع به الباحث أن يضع أذنه على قلب البيئة ويسمع نبضها وأن يفتح له أهل الأرض قلوبهم .

وصفوة القول أن الخبر والعيان العاجلين لا يكفيان للبحث العلمى ، وإنما يحتاج كل منهما إلى عمق وامتداد وربط . ويأتى بعد هذا التفسير والتعليل .

عمق التفاعل مع البيئة

من أجل ذلك حرص الجغرافيون المسلمون على عمق التفاعل مع الأرض والناس وتحقيق الأخبار ، وتحمل بعضهم في هذا رهقا وعنتا . ولكنهم كانوا يستمدون العون على هذا من الله في حب صادق للمعرفة ومنهجية في الوصول إليها . ويربط الجغرافي المسلم بين عقيدته ومنهجه العلمى ليستطيع النفوذ إلى الصحيح من المعلومات .

ولنرجع هنا إلى ما ذكره المقدسى تحت عنوان مقدمات وفصول لا بد منها :
 « اعلم أنى أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة .. وتحريت جهدى الصواب . واستعنت بفهم أولى الألباب ، وسألت الله - عزاسمه - أن يجنبني الخطأ والزلل .. فأعلى قواعده وأرصف بنيانه ما شاهدته وعقلته وعرفته وعليه رفعت البنيان » . (ص ٣) فالمقدسى يؤكد هنا أولا « المشاهدة » ثم ينتقل إلى « الخبر » فيقول: ومن قواعده أيضا وأركانه وما استعنت به على بنيانه ، سؤال ذوى العقول من الناس ، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والأعمال في الأطراف التى بعدت عنها ، ولم يتقدر لى الوصول إليها . فما وقع عليه اتفاقهم أثبتته ، وما اختلفوا فيه نبذته ، ومالم يكن لى بد من الوصول إليه والوقوف عليه قصدته ، ومالم يقر فى قلبى ولم يقبله عقلى أسندته إلى الذى ذكره أو فلت زعموا .. (ص ٣)

وهو فى أسئلته هذه يتحرى أهل الذكر فهو يتحدث عن عمق صلته بالأرض والناس قائلا : « ... وماتم لى جمعه إلا بعد جولاتى فى البلدان ، ودخولى أقاليم الإسلام ، ولقائى العلماء وخدمتى الملوك ، ومجالستى القضاة ، ودرسى على الفقهاء ، واختلافى إلى الأدباء والقراء ، وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد والمتصوفين ، وحضور مجالس القصاص والمذكرين مع لزوم التجارة فى كل بلد ، والمعاشرة مع كل أحد ، والتفطن فى هذه الأسباب بفهم قوى حتى عرفتها ، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها ، ودورانى على التخوم حتى حررتها .. » (ص ٢) .

فهذا الارتباط القوى بين الباحث والإنسان والبيئة له عدته العلمية من خبرات علمية عليه أن يتزود بها - طبيعية وبشرية - وممارسات عليه أن يقوم بها فى أثناء جمع المادة العلمية

لكتابه . ويأخذ المقدسى على من سبقوه نقص هذه الخبرات أو الممارسات أو التقصير في الاعتماد عليها فيذكر عن الجيهانى أنه « جمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودخلها ، وكيف المسالك إليها » .. وطال كتابه وغفل عن أكثر طرق الأجناد ووصف المدائن الجياد « (ص ٣ - ٤) . وأخذ على أبى زيد البلخى أنه مادوخ البلدان ولا وطىء الأعمال .. « (ص ٤) .

(٨)

مشكلات البحث في الأقطار غير الإسلامية

وإذا كان المقدسى قد ركز جهوده على مملكة الإسلام ، وذكر عدة الباحث فيها ، فإن البيرونى ركز على البحث العلمى ومشكلاته في غير ديار الإسلام . والبحث فيها أشق . ومدخل البيرونى في كتاب الهند يعتبر نموذجاً دقيقاً لما ينبغي أن يتحلى به الدارس في غير بيئته (ص ٢٠ - ٢٥) .

وبدأ البيرونى بالمخبرين وما يلحق بهم من مشكلات :

- ١ - محاولة المخبر تعظيم شأن قومه والانتقاص من غيرهم .
 - ٢ - محاولته مدح طبقة لارتباطه به ارتباط مصلحة أو ذمها لعداوة ، وهو مقارب للأول .
 - ٣ - محاولته الحصول على خير أو اتقاء شر منتظر .
 - ٤ - وهناك مخبرون من طبيعتهم الكذب والخبث .
 - ٥ - ومنهم من يتحدث عن جهل محاولاً أن يبدو كالعالم وهو غير ذلك .
- والبيرونى يصف هذه الآفات وصفا أخلاقيا ، دون الاقتصار على تصنيفها « الموضوعى » فهى عنده « شهوة وغضب .. أو دناءة طبع أو خبث مخابىء الطبيعة » . وهنا نجد الربط الوثيق من أول الكتاب بين مستوى الدقة العلمية والمستوى الأخلاقى . فالدقة العلمية أخلاق . ومن أجل هذا يستشهد على ما يقول بالرجوع إلى القرآن والإنجيل . ويربط بين الشجاعة في ميدان القتال والشجاعة في قول الحق ، بل وإنه ليتنقل بالقول حتى تظنه يعظنا بقوله عن الشجاعة أما جنسها العالى على أنواعها فهو الاستهانة بالموت ، ثم سواء كانت في قول أو كانت في فعل ، وكما أن العدل مرضى محبوب لذاته مرغوب في حسنه ، كذلك الصدق إلا عند من لم يذق حلاوته أو عرفه وتحاماه ... » (ص ٣) .

بل إن القول ليسير به بعيدا لتأكيد وجهة نظره في الصدق والدقة العلمية فيعرض لبعض الأقوال عن المعتزلة ، ولكنه يمهّد بهذا للحديث عن مشكلات دراسة أديان الهند ، وصعوبة تحرى الدقة في أمرها وذلك « لبعدها وخفاء السبيل إلى تعرفها ، والموجود عندنا في كتب المقالات وما عمل في الآراء والديانات لا يشتمل إلا على مثله » (ص ٤) .

ويحدد البيرونى هنا ما يعرض للكاتب نفسه ، وأن عليه أمرين أساسيين :

١ - تحرى الدقة العلمية وبخاصة إذا كان الموضوع بعيدا عن المؤلف عند قومه وإلا « ضاف سهمه عن الهدف » .

٢ - العرض الموضوعى لما حققه ، ونقل هنا نص عبارته « وليس الكتاب كتاب حجاج وجدل حتى استعمل فيه بإيراد حجج الخصوم ومناقضة الزائع منها عن الحق وإنما هو كتاب حكاية » (ص ٥) .

فإذا ما حقق هذين الأمرين من الدقة والعرض الموضوعى - أو قل من دقة الحكاية إذا أردنا أن نجعل الأمرين في أمر - انتقل مرحلة ثالثة إلى العرض الموضوعى المقارن فيقول « وأورد كلام الهند على وجهه ، وأضيف إليه ما لليونانيين مثله لتعريف المقاربة بينهم ... ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم إلا أن يكون للصوفية أو لأحد أصناف النصارى لتقارب الأمر بين جميعهم في الحلول والاتحاد » (ص ٥ - ٦) .

فالبيرونى في منهجه يتحرى دقة الحكاية والعرض المقارن الموضوعى ، محاولا ما وسعه الجهد - أن يضع النصوص أمامك ، دون أن يفرض رأيه عليك أو يقحم نفسه بينك وبين النص .

وينتقل بعد هذا التعميم إلى التخصيص عندما يبدأ في دراسة الهند تحت عنوان « ذكر أحوال الهند وتقريرها أمام ما نقصده من الحكاية عنهم » (ص ١٣ - ١٩) . ودرسته هنا يمكن منهجيا تطبيقها على أقطار أخرى .

١ - ويبدأ أولا بعائق اللغة « وإن تباينت الأمم بمثلها ومتى رامها أحد لإزالة المباشنة لم يسهل ذلك لأنها في ذاتها طويلة عريضة تشابه العربية » (ص ١٣) .. ثم درس جانبا من هذه المشكلات كرفع الاسم الواحد على عدة مسميات تحتاج في تحديدها إلى مزيد من الصفات لا يفرق بينها إلا ذو فطنة . ثم يعرض للغة المبتذلة والفصحى وما فيها من دقائق النحو والبلاغة .. ومشكلات النطق وعدم تطابق بعض حروفها مع العربية « لا تكاد ألسنتنا

ولهواتنا تنقاد لإخراجها على حقيقة مخارجها ، ولا آذاننا تسمع بتمييزها من نظائرها وأشباهها ولا أيدينا في الكتابة لحكايتها ، فيتعذر بذلك إثبات شئ من لغتهم بخطنا لما نضطر إليه من الاحتيال بضبطها » (ص ١٣) .

وبعد أن يعرض البيروني لمشكلات النساخ يذكر تطبيقا عمليا لبعض هذه المشكلات فيقول « ويكفيك معرفة أنه ربما تلفقنا من أفواههم اسما ، واجتهدنا في التوثقة منه فإذا أعدناه عليهم لم يكادوا يعرفونه إلا بجهد » (ص ١٤) .

٢ - ويعود إلى الدين وأنهم « يباينوننا بالديانة مباينة كلية لا يقع منا شئ من الإقرار بما عندهم ، ولا منهم بشئ مما عندنا » (ص ٢٤) . وعرض للمنبوذين وهو « القذر لا يستجيزون مخالطته في مناكحته أو مقاربة ومجالسة ومؤاكلة ومشاربة من جهة النجاسة .. ثم لا مطمع في صلاح ذلك بحيلة كما يظهر النجس بالانحياز إلى حال الطهار ، فليس بمطلق لهم قبول من ليس منهم إذا رغب فيهم أو صبا إلى دينهم ، وهذا مما يفسخ كل وصلة ، وبوجب أشد قطيعة » (ص ١٥) . وواضح هنا أن البيروني يقارن أمرهم بالإسلام .. وأن الإسلام يجب ما كان قبله كما جاء في الحديث الشريف (رواه الإمام أحمد والطبراني عن عمرو بن العاص) . ولكن البيروني - كما اشترط - يضع الحقائق - أمام القارىء - متجاوزة ، يبين نتائجها المنطقية في القطيعة .

٣ - ومن اللغة والدين انتقل إلى المباينة في الرسوم والعادات حتى كادوا أن يخوفوا ولدانهم بنا وبزينا وهياتنا ، وينسبوننا إلى الشيطنة (ص ١٥) . ويرجع هذا إلى آثار الحروب وما تولده من الحزازات والتباعد وإفراط أهل الأرض في الاعتزاز بما عندهم من علم . ويعقب البيروني بقوله « ولو أنهم سافروا وخالطوا غيرهم لرجعوا عن رأيهم » (ص ١٧) . وفي هذه العبارة الموجزة يفرق بين المجتمعات المنطوية والمفتحة . وهى في هذا درجات وصور يغلب فيها طابع ، ثم يضعف ليخلو مكانه لصورة جديدة .

وبعد الدراسة المقارنة وما للبيروني فيها من تجارب ذاتية مع علماء الهنود يعود إلى منهجه ليؤكد موضوعية الدراسة قائلا « وأنا في أكثر ما سأورده من جهتهم حاك غير منتقد إلا عن ضرورة ظاهرة » (ص ١٩) ومفتاح هذه الجملة كلمة « حاك » ..

ويستوقف النظر أن الفصل الثانى بعد هذه المقدمة كان عن « ذكر اعتقادهم في الله سبحانه » . وبهذا يعنى البيروني بالعقيدة عند الهنود أول ما يعنى ..

وهو بهذا لم يبدأ (بالأرض) لينتقل منها إلى (الناس) كما هو شائع في الدراسات الجغرافية. ويتتبع العقيدة وفروعها في سبعة أبواب، ليخصص الباب الثامن لأجناس الخلائق وأسائهم (ص ٦٧) ثم التكوين الاجتماعي .. ويسير في هذا شوطا ليصل في الباب الثامن عشر إلى معارف شتى من بلادهم وأنهارهم وبحرهم وبعض المسافات بين ممالكهم وحدودهم (ص ٥٥) . فالخط الأساسي في الكتابة بعد المقدمة : العقيدة ثم الإنسان ثم الأرض ثم عبادات تتصل بجوانب من ظاهرات الطبيعة ، أو تحتاج إلى تمهيد بها كالحج والصوم والأعياد وأحكام النجوم .

(٩)

المنهج العلمي في الدراسة الطبيعية

ومع العرض المعتمد على « الحكاية والمقارنة » مع عدم اللجوء إلى النقد إلا عن « ضرورة ظاهرة » يتبع البيروني منهجا علميا يربط فيه الظاهرة بأسبابها ونتائجها في دراساته للأرض والإنسان ولنبداً بنادج من الجغرافيا الطبيعية :

١ - ففي دراسته للجزر شرق الهند شرح نوعا منها (إنها تنشأ فتظهر في البحر قطعة رملية لا تزال تعلو وتنبت وتنمو حتى تستحكم ، وأخرى منها على الأيام تضعف وتذبل وتندوى حتى تغوص وتبيد) . (ص ١٦٩) ثم يربط هذه الظاهرة الطبيعية وموقف الإنسان منها « فإذا أحس أهلها بذلك طلبوا جديدة متزايدة الطراوة ، فنقلوا إليها النارجيل والنخل والزروع والأثاث وانتقلوا إليها » (ص ١٦٩) .

٢ - ونحس دقته في التفسير المناخي بعد هذا فيقول « وأرض الهند تمطر الحميم في الصيف ... وكلما كانت البقعة أشد إمعانا في الشمال وغير محبوب بجبل ، فهذا المطر فيها أغزر ومدته أطول وأكثر ، (ص ١٧٠) . ثم ذكر بعد هذا توزيعاته الإقليمية وعلاقاتها بالجبال . ويفرق بين الجبال المواجهة للرياح الممطرة وما يقع في ظل الجبال فيقول ، وذلك لأن هذه الغيوم ثقيلة قليلة الارتفاع عن وجه الأرض ، فإذا بلغت هذه الجبال صدمتها وعصرتها ولم تتجاوزها ، ولأجل هذا تعدمه كشمير . والعادة فيها أن تتوالى الثلوج في شهرين ونصف . فإذا جاوز (ذلك) توالى أمطار يسيرة فأذابت الثلوج وأظهرت الأرض ، وهذا فيها قلما يخطئ . فأما من خرج من النظام فلكل بقعة منه نصيب » (ص ١٧٠)

٣ - ويربط بين ظاهرات وجه الأرض والأمطار الساقطة عليها .. بل بين ما في وديانها من الحصى وشكله ومدة جريانه في مياه الأنهار ، وتكوين الأودية الفيضية فيقول : « وأرض الهند من تلك البرارى يحيط بها من جنوبها بحرهم المذكور ومن سائر الجهات تلك الجبال الشوامخ ، وإليها مصاب مياهها . بل لو تفكرت عند المشاهدة فيها وفي أحجارها المدملكة الموجودة إلى حيث يبلغ الحفر عظيمة بالقرب من الجبال ، وشدة جريان مياه الأنهار وأصغر عند التباعد ، وفتور الجرى ، وربما عند الركود والاقتراب من المغايض والبحر لم تكن تصور أرضهم إلا بحرا في القديم قد انكسبح بحمولات السيول » (ص ١٥٧) .

ففى مجال الجغرافيا الطبيعية لا يكتفى البيرونى بالربط بين الظاهرة وسببها ونتيجتها ، وإنما يتوسع ليربط الظاهرة بما يشبهها وما يخالفها في نظرة شاملة .

٤ - ويضيف البيرونى إلى ذلك ففى التفسيرات الأسطورية ، وإن ذكرها على سبيل الحكاية محدد المستوى الفكرى الذى تتردد فيه .

ويبدو ذلك عند دراسته للمد والجزر وكيف يعرض تفسيره على ثلاثة مستويات :
أ - مستوى العامة : ويقول فيه إنهم يعتقدون « أن فى البحر نارا اسمها « برونل » دائمة التنفس ، ويكون المد منها بجذب النفس والانتفاخ بالريح ، ويكون الجزر بإرسالها النفس ، وزوال الانتفاخ عنها ، كمثل اعتقده « ماني » لما سمع منهم أن فى البحر عفريتا يكون المد والجزر من تنفسه جاذبا ومرسلا » (ص ٤٣١) .

ب - وأما خاصتهم فيعرفونها فى اليوم بطلوع القمر وغروبه وفى الشهر بزيادة نوره ونقصانه .. (ص ٤٣١)

ج - ويعقب على هذا بقوله « وإن لم يهتدوا للعللة الطبيعية فيها » (ص ٤٣١) .
فالبيرونى يعتقد فى العلة الطبيعية ، ويقرر وجودها ، ولم يهتد إليها خاصة الهنود وقتئذ . ويتابع دراسة الظاهرات المرتبطة بها كشوء الجزائر وتحللها وهى التى سبقت الإشارة إليها ، فيتحدث عن قلعة « باروى الذهبية » المنعزلة عن الشاطئ فيقول عنها : « وأما ظهور القلعة فى الماء فليس ببديع فى ذلك البحر ، وذلك لأن جزائر الديجات على هذا المثل تنشأ وتبرز فى الماء ككتيب رمل مجتمع ، وتزداد ارتفاعا وانبساطا وتبقى حيناً من الدهر ثم يصيبها الهرم فتتخلى عن التماسك ، وتنتشر فى الماء كالشئ الذائب وتغيب .. ونسبة القلعة أيضا إلى

الذهب ممكن أن يكون اسما وضعيا ، ويمكن أن يكون اسما حقيقيا ، فإن جزائر الزنج (وقد يكون الزايج كما جاءت في هامش الكتاب) تسمى أرض الذهب ، لأن الذهب الكثير يرسب في غسالة التراب القليل منه » (ص ٤٣١ - ٤٣٢) .

(١٠)

المنهج العلمى فى الدراسة البشرية

ويبدو هذا أولا فى التزام الموضوعية فى العرض ولناخذ نموذجين ، أولها من دار الإسلام والثانى من خارجها :

١ - أما النموذج الأول فمن وصف مصر للمقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم (ص ١٩٣ - ٢١٥) فهو يبدأ بذكر مكانة الإقليم ، وبخاصة ما يتعلق فيه بقصص الأنبياء ومشاهدهم : .. يتحدث عن طور سيناء وعن يوسف وهجرة مريم بعيسى . وكيف كرر الله ذكر مصر فى القرآن وأظهر للخلق فضلها : « أحد جناحى الدنيا ومفاخره مصر قبة الإسلام ونهره أجل الأنهار » (ص ١٩٣) . إلا أنه يربط بين الوضع الاقتصادى وارتفاع النيل وانخفاضه فيقول عن القحط : « جريه سبع سنين متوالية .. وفى كل حين تحل بهم الداهية » (ص ١٩٣) وهنا نتحفظ علميا على سبع سنين فى أنها ليست سنة دائمة فى ارتفاع النهر وانخفاضه . ثم يقسم إقليم مصر إلى سبع كُورست منها عامرة .. والسابعة الواحات .

والذى تلحظه فى منهج المقدسى - تحريا لمزيد من الموضوعية أنه يستخدم فى كل إقليم يدرسه ، مصطلحات أهله وأسلوبهم فى التعبير . وهذا ما جعل ترجمة هذا الكتاب إلى غير العربية مجهودا شاقا وقف أمامه العلماء ، وإن رأى هو فى هذا دقة فى التصوير وأمانة فى العرض ، بل إنه ليستشهد بالأمثال المحلية إذا كانت تحمل مدلولاً جغرافياً .. وهذا يدل على كثرة اختلاط المقدسى بالناس من مختلف الأوساط ، وتقيدته ما استطاع بهذه النصوص . من أمثلة ذلك ما يذكره عن القلزم - ميناء على رأس خليج السويس والقلزم بلد قديم على طرف بحر الصين (البحر الموصل إلى الصين والشرق الأقصى) . يابس عابس ، لا ماء ولا كلاً ، ولا زرع ولا ضرع ، ولا حطب ولا شجر ، ولا غنبل ولا ثمر يحمل إليه الماء فى المراكب ومن موضع على برید يسمى سويس على الجبال ماء آجن ردى . ومن أمثالهم « ميرة أهل القلزم

من بلبس ، وشربهم من سويس ، يأكلون لحم التيس » . ولبس على أطراف الأرض الزراعية شرق الدلتا . بعبارة أخرى على خط التقاء بين الأرض الخضراء والأرض الصفراء ، أو بين الرمل والطين ، إلى الشمال الشرقي من رأس الدلتا ولقطة المراعى فى هذا الجزء كانت الماعز أكثر الحيوانات الرعوية فيه . أما الماء فى منطقة رأس خليج السويس - كما فى كل منطقة القتال الحالية - فمصدره الأساسى النيل أو فروعه أو ترعه القريبة ... وبعد هذا يستدرك المقدسى ليرىز مكانتها التجارية باعتبارها الباب الشرقى لتجارة مصر فى عالم البحر الأحمر فيقول : « ... غير أن مساجدها حسنة وبها قصور جلييلة ومتاجر مفيدة هى خزانة مصر وفرضة الحجاز ومعونة الحاج » (ص ١٩٦) .

وعلى هذا المنهج يعرض المقدسى ما يراه كأنه جهاز تصوير دقيق يذكر مكونات الإقليم فى جمل قصيرة كأنها برقيات فيها ما يرضى عنه أهل الإقليم ، وما لا يرضون . ويؤكد ما يذهب إليه ، بتجاربه الذاتية أو وجهة نظره . يقول عن الفسطاط وازدحامها « وسمعتهم يذكرون أنه يصلى قدام الإمام يوم الجمعة نحو عشرة آلاف فلم أصدق حتى خرجت مع المتسعة إلى سوق الطير ، فرأيت الأمر قريباً مما قالوا » (ص ١٩٨) .. غير أنه حيناً يتكلم عن المساكن فيه يقول .. « إلا أنه ضيق المساكن .. كرب البيوت .. مياه كدرة وآبار وضرة .. » (ص ٢٠٠) . وفى المقدسى حدة فى الوصف لم تسلم منها حتى بعض مدن الأرض المقدسة .

٢ - أما النموذج الثانى - خارج أرض الإسلام - فمن المسعودى فى مروج الذهب عند دراسته للزنج . يقول « والزنج أولو فصاحة فى ألسنتهم ، وفيهم خطباء بلغتهم ، يقف الرجل الزاهد منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم ، ويرغبهم فى القرب من بارئهم ، ويحثهم على طاعته ، ويرهبهم من عقابه ، ويذكرهم من مضى من ملوكهم وأسلافهم ، وليس لهم شريعة يرجعون إليها ، بل رسوم لملوكهم وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهن » (٢ : ١٧) وحديث المسعودى هنا عن قوم غير مسلمين . ولذا ذكر أنه « وهو العربى » والعرب أهل فصاحة ومعجزة الإسلام الكبرى هى القرآن الكريم يصف الزنج بقوله إنهم : « أولو فصاحة فى ألسنتهم . وكذلك لا يهون فى شأن النبوة فى الحرب وإنما يقول عنهم » وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما افتتح عمرو بن العاص مصر كتب إليه بمحاربة النبوة ، فغزاهم المسلمون ، فوجدهم يرمون الحديق » (٢ : ٢١) فمن دقة الراى منهم أنه إذا صوب سهمه أصاب حدقة العين .

٣ - ويربط المسعودى بين العوامل الطبيعية بعضها ببعض ، وبالعوامل البشرية محاولا رد الظواهرات إلى أسبابها فيقول ، وقد ذكرنا فى كتابنا المترجم بالقضايا والتجارب ما تؤثره كل بقعة من بقاع الأرض وهوائها فى حيوانها من الناطقين وغيرهم ، وما تؤثر البقاع فى الناس من النبات ، وفيما ليس بنام ، كتأثير أرض الترك فى وجوههم وصغر أعينهم ، حتى أثر ذلك فى جاهلهم ، فقصرت قوائمها وغلظت رقابها ، وابتيض وبرها » (١ : ٥١ - ١ - ٢) .

٤ - كما يربط البيرونى بين العوامل البشرية بعضها وبعض محاولا تفسير بعض الظواهرات الدينية فى الهند بأسباب اقتصادية واجتماعية ، وعند دراسته تحريم لحوم البقر يقول بعد أن يعرض ما سمعه من آراء « وأنا أظن فى ذلك أحد أمرين : أما السياسة فإن البقرة هى الحيوان الذى يخدم فى الأسفار بنقل الأحمال والأنقال ، وفى الفلاحة بالكرب والزراعة وفى الكدخداهية بالألبان وما يخرج منها ثم ينتفع بأخثائه (روثه : انظر لسان العرب) بل فى الشتاء بأنفاسه ، فحرم كما حرمه الحجاج لما شكى إليه خراب السواد ، وحكى لى أن فى بعض كتبهم : أن الأشياء كلها شئ واحد وفى الحظر والإباحة سواسية ، وإنما تختلف بسبب العجز والقدرة ، فالذئب يقتدر على حطم الشاة فهى أكلته ، والشاة تعجز عنه وقد صارت فريسته ، ووجدت فى كتبهم ما شهد بمثله إلا أن ذلك يكون للعالم بعلمه إذا حصل فيه على رتبة .. وإذا كان كذلك استوت عنده أيضا سائر الأشياء فى الكف عنها ، فسواء كانت كلها حلالا إذ هو مستغن عنها أو كانت حراما فإنه غير راغب فيها ، فأما من له فيها أرب باستحواذ الجاهل عليه فبعض له حلال وبعض عليه محرم والسور بينهما مضروب » (ص ٤٦٨ - ٤٦٩) .

ويستوقفنا هنا رأيه الأول المرتبط بالأوضاع الاقتصادية أكثر من رأيه الثانى الأشد ارتباطا بالأوضاع الدينية ومستوياتها ، وإن بناها على تفاوت فى القدرة . فما دامت للبقر هذه المكانة فى حياتهم فمن الأنسب المحافظة عليه والاستفادة منه حيا .. وشئ قريب من هذا نجده فى القبائل الزنجية النيلية فى جنوب السودان كالشلوك والدنكا والنوير وفى هذا يختلفون عن قبائل البقارة العرب الذين يعاملون البقر استخداما وبيعا وشراء وذبحا كما هو معتاد فى الإسلام .

عودة إلى المنبع

أشرت في صدر هذا البحث إلى الرباط بين علماء الإسلام والعقيدة الإسلامية ، بمصدرها الأساسيين : القرآن والسنة النبوية . وأن الكتاب في الفكر الإسلامي لا يعدو أن يكون تنفيذا لعقد بين المؤلف والقارىء ، أن يكتب فيه الصدق في الموضوع الذى تتناوله الدراسة . وتناولت العرض الموضوعى في الجغرافيا الإسلامية ، والمنهج النسبى ، والربط والتعليل والتوزيع ، والتقسيم .. وهى دعائم أى دراسة جغرافية .

وإذا كانت هذه هى أهم معالم « المنهج » إلا أن هذا المنهج تابع من العقيدة نفسها ، وبها تتحدد نظرة الإسلام إلى الكون والإنسان .

الأرض :

وينص القرآن الكريم على أن الله خلق الأرض لنا :

١ - « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا » (البقرة : ٢٩) .

٢ - « والأرض وضعها للأنام » (الرحمن : ١٠) .

٣ - « الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » (إبراهيم : ٣٢ - ٣٤) .

فكل ما حوله من هذا الكون الكبير إنما هو مسخر له . والأرض أمامه ممتدة : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » (الملك : ١٥) .

والقرآن يجعل الإنسان جزءا من مادة الأرض . « والله أنبتكم من الأرض نباتا » (نوح : ١٧) فالإنسان ليس غريبا عنها ولا مطرودا عنها ، وإنما هو خليفة الله فيها . يعيش عليها ويشوى فى جوفها ، ويبعث منها « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » (طه : ٥٥) .

ويعبر الرسول (ص) عن هذا فيقول « تمسحوا بالأرض فإنها بكم برة » (الطبرانى فى المعجم الصغير عن شيخه حملة بن محمد)

ومن أجل ذلك لا تقوم العلاقة فى الإسلام بين الإنسان والكون بعامة والأرض بخاصة

على أساس من العداوة والاستغلال الهدام والتخريب ، وإنما تقوم على أساس من استخراج خيراتها في تآلف وتناغم ومودة . ويمتد هذا التآلف ليشمل مادة الأرض نفسها . فأبو بكر الصديق يقول : في وصيته ليزيد بن أبي سفيان وهو على رأس جيش متجه إلى الشام « لا تقطع شجرا مثمرا ولا تخرب عامرا .. ولا تحرقن نخلا ولا تفرقنه » (البخارى من رواية عبد الله بن عمر) ...

الإنسان :

وانعكست هذه النظرة الودود على الإنتاج العلمى الإسلامى فلا تكاد تجد فيه ألفاظا شاعت وتواترت بعد هذا في التأليف مثل « الصراع مع البيئة .. التحدى .. الانتصار على الطبيعة .. السيطرة على البيئة .. وهى العبارات التى تحمل معنى من « عداوة » البيئة ، عداوة نجد جذورها فيما جاء في العهد القديم ، سفر التكوين في روايته لقصة آدم وقول الله له « ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك . وشوكا وحسكا تنبت لك ، وتأكل عشب الحقل ، يعرق وجهك تأكل خيرا حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها ؛ لأنك من تراب وإلى تراب تعود » (٣ : ١٧ - ١٩) .

مفهوم العقوبة بالأرض وفي الأرض ، لا نجد له ظلا في القرآن الكريم وإنما خلق الله الأرض له . وهو خليفة الله فيها وإليه بعث الله الرسل مبشرين ومنذرين وأنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط .

والقرآن يصور الإنسانية أسرة كبيرة واحدة « يأبها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منها رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا (النساء : ١)

فالخالق واحد ، والنفس الإنسانية واحدة . ومن هذه النفس خلق الله زوجها ومن هذه الأسرة الأولى جاء الناس : رجالا كثيرا ونساء .

واختلاف الألوان لا يعدو في الإسلام أن يكون مظهرا لقدرة الله .. ويأتى ذكر هذا الاختلاف وسط حشد من الظاهرات الطبيعية والبشرية .. « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، وإن في ذلك لآيات للعالمين » (الروم : ٢٢) هذا الاختلاف له مكانته وقداسته - من هذه الزاوية - « وهو في الإسلام سبيل إلى خشية الله ، خشية مرتبطة بالعلم والعلماء :

- « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد (جمع جدة وهى الطريق) بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود (أسود غريب أى شديد السواد) . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور » (فاطر : ٢٧ - ٢٨) .

وفى الآيات ربط بين الظاهرات وضرورة البحث العلمى فيها ، وإن مجالات الدراسة والبحث ستزيد من قوة الأساس الذى يقوم عليه البناء كله من أن الناس كلهم إخوة وأن الأرض موطن ذلول للإنسان وأن الإنسان من نبات هذه الأرض .

ولنا أن نقول إن الإسلام ينظر إلى الإنسانية كأنها حديقة كبيرة تختلف ألوان أزهارها دون أن يكون لأى لون فضل على الآخر.. وإنما أكرم الناس اتقاهم الله . (راجع : عبد العزيز كامل : الإسلام والتفرقة العنصرية ، ص ٢٧ - ٣١ ط اليونسكو ١٩٧٠) .



خاتمة

والذى أود أن أخلص إليه من هذا العرض لمصادر التوجيه في الفكر الإسلامى ومنه الفكر الجغرافى ، وللنماذج الجغرافية المختارة من كتب الجغرافيا الإسلامية لتوضيح موقفها من الأرض والإنسان هو ما يأتى :

- ١ - أن التراث الجغرافى الإسلامى جزء من التراث الإسلامى العام (وهنا استخدم لفظ التراث بالمعنى الشامل النامى الذى يضم هذا الانتاج فى عصوره المتتابة . دون توقف عند عصر معين) وأن هذا التراث الشامل له طابعه العام الذى نراه . فى تأليفه الفكرية كما نراه فى قطع الفن الإسلامى سواء بسواء . وبعبارة أخرى إن هناك وحدة فكرية وترابطا عضويا يشتمل الفكر الإسلامى والجغرافيا جزء منه .
- ٢ - أن هذه الوحدة مردها إلى الأصلين الأساسيين فى الإسلام : الكتاب والسنة المطهرة .
- ٣ - أن نظرة الإسلام - وبالتالي الجغرافيا الإسلامية - إلى الكون نظرة صداقة ومودة وليست نظرة صراع وانتصارات وهزائم .
- ٤ - أن نظرة الإسلام وبالتالي الجغرافية الإسلامية إلى الإنسان أنه خليفة الله فى أرضه وأن الأخوة الشاملة تجمعهم . فكلهم من خلق الله ، جعلهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، ولا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى . والتقوى أمر كسبى لا يعود إلى عصبية لون أو طبقة أو جنس أو وضع اقتصادى أو اجتماعى .
- ٥ - أنه إذا ما وجدنا نظرة استعلاء أو تفاخر فى إنتاج من المكتبة الإسلامية فهو لا يعبر عن روح الإسلام ، ولا عن الخط الرئيسى المتبع فى تراثنا الجغرافى .
- ٦ - وأن آخر ما انتهى إليه الفكر العالمى المعاصر (وما صدر عن اليونسكو نموذج له) يؤكد وحدة الأصل فى الإنسان ، وأن الفروق بين الجماعات لا ترجع إلى عوامل طبيعية فيها ، وإنما إلى الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى عاشت بها .. وبهذا وبعد رحلة طويلة تصل سفينة العلم الحديث إلى المرفأ الذى رفع الإسلام عليه علم الإخاء من قديم ، داعياً إلى إنسانية كبيرة تعيش السلام فى أرض تؤمن بالحق والسلام .

٧ - وفي ضوء من هذا التوجيه التزم الجغرافيون الدقة الموضوعية في البحث ، واتبعوا منهجهم العلمى فى جمع المعلومات وتصنيفها وتحقيقها ، والربط بينها والمقارنة والتقسيم فى التحليل والتعليل .

مكتبة البحث

أولا :

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - التوراة : سفر التكوين .

ثانيا :

- ٣ - البيرونى :
- تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مردولة .
ط . دائرة المعارف العشائية - حيدرأباد الدكن . الهند ١٣٧٧ هـ إ ١٩٥٨ م .
- ٤ - المسعودى :
- مروج الذهب ومعادن الجوهر .
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .
ط . التجارية القاهرة ١٣٨٤ هـ إ ١٩٦٤ م .
- ٥ - المقدسى :
- أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم .
تحقيق دى غوية ط . بريل . ليدن ١٩٠٦

ثالثا :

- ٦ - عبد العزيز كامل :
- الإسلام والتفرقة العنصرية
اليونسكو ١٣٩٠ هـ إ ١٩٧٠ م